

نشأة الدراسة الصوتية العربية وتطورها.

إعداد الدكتور أحمد عزوز أستاذ
جامعة وهران، السانية.

مقدمة:

ليست الدراسة الصوتية وليدة الفترة الحديثة والمعاصرة بل تمتد جذورها في القدم، فقد اهتمت الأمة الهندية بهذا الميدان، دفعها إلى ذلك كتابها المقدس الفيدا، فقام علماؤها بتصنيف أصوات اللغة السنسكريتية، على أساس فيزيولوجي. ونجد عناية اليونانيين والرومان بدراسة أصوات لغتهم وكذلك اللغة اللاتينية "فقد قاموا بتصنيفها على أساس ملاحظة الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن" (1). كما كان القدماء من علماء العربية يبحثون في الأصوات التي احتلت موقعا مهما بين فروع الدراسات اللغوية، وهي تعدّ من أقربها إلى المنهج العلمي، شهد المحدثون بأنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، فأثار وصفهم للصوت العربي دهشة المستشرقين، ممّا دفعهم إلى الإشادة بجهود علماء العربية في هذا الميدان، إذ قرّر فيرث FIRTH أن "علم الأصوات شَبّ ونما في أحضان لغتين مقدستين هما العربية والسنسكريتية"، ويذكر برجسترasser BERGERSTRASSER في هذا المجال قائلا: "لم يسبق الغربيين بهذا العلم إلا قوم من أقوام الشرق هما أهل الهند (البراهمة) والعرب" (2).

1 - منطلقات الدراسة الصوتية العربية:

ولقد ارتبطت الدراسة الصوتية العربية – كغيرها من الدراسات اللغوية والعلمية – بالقرآن الكريم نشأة ونهضة، إذ أنّ الحفاظ عليه يستوجب الحفاظ على اللسان الذي أنزل به، ومن ثمّ عني العرب بلغتهم، فبذلوا جهودا عظيمة من أجل خدمتها فكان الاعتزاز بها والحرص عليها دافعين على بحثها ودراستها دراسة شمولية تهدف في المقام الأول صون القرآن الكريم من كلّ تحريف، فكان أساس الدرس الصوتي مبنيا على القراءات القرآنية.

وهو "علم وإن كان متأخرا من حيث الوضع النظري، عن بعض العلوم الأخرى، فإنّه أسبق منها من حيث الواقع العلمي، وقد كان علماء النحو القدماء أئمة في القراءات على ما نعرف عن أبي عمرو بن العلاء والكسائي وغيرهما" (3).

وخير دليل على ذلك "ظهور علم التجويد مبكرا، ضابطا للأداء القرآني، معنيا بالعناصر التكوينية والأحكام السياقية للتلاوة القرآنية" (4)، التي جعلت علماء العربية يتأملون أصوات اللغة ويلاحظونها ملاحظة ذاتية، أنتجت في وقت مبكر جدّ دراسة قيمة للأصوات العربية لا تتباعد كثيرا عما يقرّره المحدثون.

ولا نملك المادة الكافية لعلم التجويد التي تسمح لنا بتتبع مراحل التطور التي قطعها حتّى غدا علما مستقلا على يد ابن جني، وكلّ الذي نعرفه عن بداياته الأولى أنّ نشأته كانت استجابة لدعوة ابن مسعود ومحاولة لتلقيين قواعد القراءة اقتفاء لأثره، والذي كان ينصح المسلمين بقوله: "جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات".

وهذا القول هو دعوة إلى التبصر في الأصوات القرآنية وإعطاء حقها حين إصدارها في تألف مع أخواتها في الآية الكريمة، فتكون القراءة جيدة وبالتالي خاضعة إلى الأسس التجويدية التي كانت صورتها واضحة على لسان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد اشتهر المهتمون بالتجويد والقراءة السليمة فعرفوا بالأمانة وضبط وهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ابن مسعود، أبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري.

فهؤلاء هم الشيوخ الأوائل لفن القراءة على عهد الرسول -ص- وعندهم أخذ العديد من الصحابة وبعدهم التابعون في أمصار عدّة منهم في المدينة: سعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز، وفي مكة: عطاء بن أبي رباح وعكرمة وفي الكوفة: عمر بن شرحبيل وسعيد بن جببر، وفي البصرة نصر بن عاصم.

وتعني القراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفية نطقها من تخفيف وتشديد وغيرهما، ويدخل في ذلك ما كان من قبيل الأداء كالمَد والإمالة وتحقيق الهمز. وتلك الطائفة من العلماء - القراء - اهتمت بالقرآن الكريم لضبط تلاوته ومعرفة أصواته وطريقة وحسن أدائه حسب الوجوه المروية فيه والمسندة إلى النبي -ص- ومن الكتب المهمة التي وصلتنا في هذا المجال: الحجة لابن خالويه والحجة لأبي علي الفارسي، والمحتسب لابن جني. وأصبح كلّ كتاب في التجويد يشتمل - إلى جانب قواعد التلاوة - على فصل في مخارج الأصوات وطريقة نطقها وصفاتها، كما فعل ابن الجزي (ت 833هـ) في كتابه "النشر في القراءات العشر" (5)، وتردّدت في كتب التجويد أيضا مصطلحات صوتية مثل الإشمام والإشباع والاختلاس والمَد والتفخيم والترقيق والإدغام ونحوها...

فقد كان هدف المجوّدين من وصفهم لأصوات اللغة العربية هو تقويم لسان أصحاب الأداء ووقاية نطقهم من الخلل الذي طرأ على الألفاظ أو ينتج عن لهجة أو عجمة أو انحراف في التلفظ لأنّ قارئ القرآن يجب أن يعطي للحروف حقوقها ويحتفظ لها برتبتها ويردّها إلى مخرجها (6). ولقد اتسعت فائدة علماء التجويد إلى اختصاصات أخرى ومنها النطق الصوتي بصفة عامة للمحافظة على الأصوات العربي، ولذلك إن علماء التجويد وعلماء القراءات هم الذي ظلوا محافظين إلى اليوم و بنسبة كبيرة على نطق الأصوات العربية كما يتلفظ بها العربي في عصر الجاهلي وما تلاه من العصور والعهود.

وحين نقول: إنّ دراسة الأصوات كانت في فترة مبكرة عن طريق قراءة القرآن، إنّما نذكر عمل أبي الأسود الدؤلي في ضبط القرآن الكريم في النقط من خلال ملاحظة حركة الشفّتين بقوله لكتابه: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف، وإن اتّبع ذلك بغنة فضع بدل النقطة نقطتين". ومما لا شكّ فيه هو أن الدراسة الصوتية القديمة وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها والنتائج التي حققتها جعلت الدراسة الصوتية الحديثة تقرّ ببعضها وتشهد لها بقيمتها إلا أنّ نظر القدماء " لا يبلغ من الدقّة والضبط والإتقان ما وصل إليه المحدثون في أوروبا وأمريكا وآسيا " (7) ، وهذا بحكم الزمان من جهة والمنهج والتطور العلمي والتكنولوجي من جهة أخرى.

ولما كانت ثمار الدراسة الصوتية أذهلت اللغويين أنفسهم، فلعلنا لا نكون مبالغين حين نقرّر أنّ مظهر الألسنية لم يتمثّل في أيّ فرع من فروعها مثلما تمثّل في علم الأصوات بمناهجه المتعدّدة ووسائل بحثه المختلفة وبآلاته وأجهزته المتطورة التي يستخدمها في ميدان الدراسة. وقد أصبحت له هيئات ومعاهد خاصة، وهو لهذا علم عالمي، بل هناك من يرى أنّ علم الأصوات يجب أن يلحق بالعلوم الدقيقة لما وصل إليه من نتائج تطبيقية.

ونمت الملاحظات الصوتية إلى أنّ أصبحت معالجة في علوم اللغة المختلفة، تسهم في تفسير كثير من مشكلاتها، أدّت إلى إعجاب المستشرقين بها، فأشادوا بجهود علماء العربية في هذا الميدان، كما استفاد الغربيون منها وأصلوا عليها فروعاً عديدة مكنهم منها ظهور الآلات الدقيقة والتحليل الصوتي في المختبرات، والتطور التقني الذي شهده القرن وبخاصة ابتداء من الستينيات (8). وقد ارتكزت هذه الدراسة على قطبين أساسيين هما: علم الأصوات النطقي والسمعي وعلم الوظائف الأصوات، الذين عالجهما العرب تحت مظلة واحدة، إذ كلاهما يدرس الصوت اللغوي، والعلاقة بينهما شديدة والفصل بينهما صعب الحصول.

وتحسن الإشارة إلى أنّ البحث الصوتي العربي لم يضمّه مصدر واحد، ولم يتناوله عالم واحد، ولكنه تناثر بين طيات مصنفان علوم العربية المختلفة، الصوتية منها والنحوية الصرفية، والبلاغية، والتجويدية وإعجاز القرآن والمعاجم، وتعدّد العلماء الذين شاركوا في إقامة

صرحه وتوطيد بنيانه"(9)، وكلّ ذلك يدل على عناية العرب القدامى وتعلقهم بالمجال الصوتي لأهميته وأثره في تفسير كثير من الظواهر اللغوية.

ومن الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر في عدّة نواح من الدراسة اللغوية، وكانت لهم اليد الطولى في تأسيس التراث الصوتي العربي، والذين ما تزال أعمالهم تعتر بهم الأمة العربية: الخليل بن أحمد الفراهدي (ت 175 هـ)، وسيبويه (ت 180 هـ)، وقطرب (ت 206 هـ)، وابن جني (ت 392 هـ)، وابن سينا (ت 428 هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ)، والزمخشري (ت 538 هـ)، والكاكي (ت 626 هـ).

2 - المؤلفات الصوتية

والمصنفات التي تعدّ مصادر صوتية ما يأتي:

أ - المعاجم العربية:

تعتبر المعاجم العربية من مصادر التراث الصوتي لأنّها زخرت بفيض كبير من الفكر الصوتي ومن الآراء التي أصبحت منطلقاً لكلّ دارس في هذا الميدان. وقد تناولت القضايا الصوتية في المقدمة أو في ثنایات المادة اللغوية المجموعة والمشروحة والمفسرة.

ويجوز الفصل في الدراسة الصوتية الممنهجة على الخليل بن أحمد الذي وضع الأسس الأولى لعلم الأصوات العربية، ويتجلى ذلك في مقدمة "العين"، حين يقول محققا المعجم: "في هذه المقدمة بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلّا بعد قرون عدّة من عصر الخليل" (10).

وبذلك احتلّ هذا المعجم مكانة سامية في اللغة العربية باعتباره أول معجم عربي، ينظم المادة اللغوية بطريقة دقيقة، اهتدى إليها الخليل بفكره الثاقب وموهبته النادرة وعلمه الواسع.

وجاء تأليفه مناسباً لمدارج الجهاز الصوتي انطلاقاً من الحلق إلى الشفتين، وذلك تبعاً لطريق المخرج الكلام الذي ينطلق بطبعه من الداخل إلى الخارج، في حركة الزفير، فكان الخليل يتذوق الحروف بفتح فمه ثم ينطق بالألف ويظهر الحرف نحو: "أب، أت، أخ، أع" إلى نهاية كل الحروف، فتمّ اختياره بداية الترتيب بالعين التي جعلها أول الكتاب ثمّ ما قارب منها، فالأرفع حتى أتى على آخرها، فتوصل إلى الترتيب التالي: "ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ث، ذ، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ا، ي، الهمزة (11).

وقد رسم الخليل الطريقة التي يمكن معرفة مخارج الصوت وكان في ذلك موفّقاً كل التوفيق إلى حدّ أن علم الأصوات الحديث يعترف بكثير من آرائه ومقاييسه الصحيحة" (12).

ومما قاله الخليل إنّ "أقصى الحروف كلها العين ثمّ الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثمّ الهاء، ولولا هتّة في الهاء... لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيّز واحد بعضها أرفع من بعض" (13).

ويرى الفراهيدي أنّ "الألف في اسحنكك واقشعرّ واسحنفرّ واسبكرّ ليست من أصل البناء، وإنّما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً وسلماً للسان إلى حرف البناء، لأنّ اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل، إلّا أنّ دحرج وهملج وقرطس لم يحتج فيهنّ إلى الألف لتكون السّلم، فافهم إن شاء الله" (14).

ويتحدّث عن سمات البناء اللغوي، مبيناً أنّ كلام العرب مبنيّ على أربعة أصناف، الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، ومقرّراً أنّ الكلمة الرباعية والخماسية إن لم تكن تحتوي على حرف من أحرف الذلاقة أو الأحرف الشفوية فهي ليست من الكلام العربي، حيث يقول: "فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّة من حروف الذلاق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أنّ تلك محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب لأنّك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلّا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر" (15).

وتحدّث عن صفات الأصوات كالرخاوة والإطباق والشدة، وتعرّض إلى نسبة تردّد الأصوات في اللغة العربية، إذ رأى أنّ أكثر الأصوات استعمالاً في اللغة العربية هي الواو والياء والهاء وأقلّها الظاء ثمّ الذال ثمّ الثاء ثمّ الشين ثمّ القاف ثمّ الخاء ثمّ النون ثمّ اللام ثمّ الراء ثمّ الباء ثمّ الميم (16). إلى غير ذلك من الأفكار والتعليقات والابتكارات التي ظلت نبراساً، وهدياً لعلماء اللغة والنحو والصرف والعلوم اللسانية بصفة عامّة (17).

ب - المصنّفات النحوية الصرفية:

تقوم كثير من أصول النحو العربي على أسس صوتية كتفسير الآثار الإعرابية التي تطرأ على الكلمات.

فلقد حوت المصنّفات النحوية الصرفية بين ثناياها كثيراً من ملامح التراث الصوتي العربي، وضمت دراسة مسهبة للمنحى الفسيولوجي المتعلق بكيفية تكوين الأصوات وإصدارها، وما ينجم عن ذلك من تنوّع في صفاتها.

فقد خصص النحاة بعض الأبواب في كتبهم للدراسة الصوتية وخاصة حين تعرضهم لباب الإدغام أو الحديث عن قواعد الإعلال والإبدال.

وكتاب سيبويه شاهد عدل على ذلك، وكذا المفصل للزمخشري، والجمل للزجاجي وغيرها من المصادر التي لا تخلو من الإشارة إلى الملاحظات الصوتية.

فسيبويه - مثلاً - أشار إلى كثير من الخصائص الصوتية، وأتسم تصنيفه بالدقة والشمول، تناقلته التآليف العربية بعد، وهي معلومات مأخوذة من دون شك عن أستاذه الخليل بن أحمد وإن كان لا يتحدث عن ذلك.

ففي موضوع الإدغام يتعرّض إلى الأصوات فيقول: "هذا باب عدد الحروف العربية، ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها.

فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والذال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والتاء، والفاء، والباء، والميم، والواو" (18).

ويضع سيبويه ستة عشر مخرجاً لحروف العربية، وما يلفت الانتباه هو أنّ يضع الهمزة والألف في مخرج أقصى الحلق وفي وسطه العين والحاء، (19) وهو يخالف في ذلك أستاذه الخليل الذي جعل مخرج العين والحاء من أقصى الحلق، وجعل الهمزة مع الواو والألف، والياء.

ويتناول صفات الأصوات من جهر وهمس وشدة ورخاوة ومنحرفة، ومكرّرة، ولينة، وهوائية ومطبقة ومنفتحة، (20) ويختم ذلك بقوله: "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقلاً لما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرّك" (21).

فلم يخل مصنّف في النحو - في حدود علمنا - لم يتعرض إلى القضايا الصوتية وهذا للعلاقة التي تربط العلمين.

ولقد قدم بعض النحاة القدامى الشرح اللغوي للحركات متّصلاً بالجانب الفسيولوجي والكيفية التي يتمّ بها نطقها، ومن أولئك الزجاجي حيث يقول في "باب القول في معنى الرفع والنصب والجرّ من طريق اللغة": "... فنسبوا الرفع كلّهُ إلى حركة لأنّ المتكلّم بالكلمة المضمونة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى ويجمع بين شفّتيه وجعل ما كان منه بغير حركة موسوماً -أيضاً- بسمة الحركة لأنّها هي الأصل.

والمتكلم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه، فيبين حنكه الأسفل من الأعلى، فيبين للناظر إليه كأنّه قد نصبه لإبانة أحدهما عن صاحبه.

وأما الجرّ... ومن سماه منهم من الكوفيين خفضاً، فإنّهم فسروه نحو تفسير الرفع والنصب لانخفاض الحنك الأسفل عند النطق به، وميله إلى إحدى الجهتين.

وأما الجزم فأصله القطع... فكأن معنى الجزم قطع الحركة عن الكلمة ... وكان المازني يقول: الجزم قطع الإعراب" (22).

وأشارت تلك المصنفات ولا سيما في الميدان الصرفي إلى كثير من الملامح الفونولوجية التي تتعلّق بتجاور اللبّات المكوّنة للصيغة، وما يطرأ على بنية الكلمة العربية المعربة من تغييرات: إمّا في التصريفات المختلفة (من لإفراد وتنثية وجمع، وتذكير وتأنيث، وتصغير، ومبالغة، ونسب، وماضي، ومضارع، وأمر.. إلخ) وإمّا عند وقوعها في درج الكلام في سياقات صوتية معيّنة (كالإدغام والوصل).

ومن المصدر الصرفية التي عالجت المباحث الصوتية المتعددة كالإعلال والإبدال والقلب وغيرها الشافية لابن الحاجب (646هـ).

ج - علم القراءات والأداء القرآني:

تعدّ مصنفات التجويد من أهمّ مصادر التراث الصوتي، بل منابعه الأولى التي لعبت دوراً مهماً في الحفاظ على النطق السليم لأصوات اللغة العربية منذ القديم إلى يومنا هذا لأنها تنتقل من خلالها نطق الأصوات عبر التواتر والنقل المباشر والسماع الحضوري.

فقد كان علماء القراءات من أحرص القوم على تناول المباحث الصوتية في مؤلفاتهم التي ضمت كثيراً من الخصائص والمصطلحات الصوتية مثل الإشمام والإشباع والاختلاس والمدّ والروم والتقخير والترقيق ونحوها، كما وضعوا رموزاً كتابية لها تمثلها (23).

وجمعت هذه المعالجة للمادة الصوتية بين النظري والتطبيقي "فعرض لمخارج الحروف وصفاتها وتقسيماتها وفق ذلك، واللامح الأدائية لها في السياقات المختلفة والتجاورات المتنوعة" (24).

ولكن يستشف من هذه الدراسة أنّ مادّتها العلمية غير كافية لتسمح بتتبع وصف المراحل التي قطعتها إلى أن أصبحت علماً قائماً مستقلاً يطلق علم التجويد.

وما يعرف عن مراحل الأولى هو أنّ أول من استخدم هذا المصطلح قريباً من معناه هو ابن مسعود الصحابي الذي كان ينصح المسلمين بقوله: "جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات" ويروى أنّه كان يتفنّن في تجويده وترتيله، وأنّ الرسول (ص) كان يجهش بالبكاء حين يسمع القرآن الكريم بترتيل ابن مسعود (25).

ولعلّ تقنين قواعد القراءة القرآنية جاءت استجابة لدعوة ابن مسعود، فأصبح كلّ كتاب في القراءات يشمل على مباحث في مخارج الأصوات وطريقة نطقها وكذلك صفاتها المختلفة كما بان الجزري في مصنّفه "النشر في القراءات العشر" (26).

د - مصنفات البلاغة وإعجاز القرآن:

لمّا كانت العلاقة بين البلاغة والأصوات جدّ وثيقة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة، فلا غرو أن تضمّ المصنفات البلاغية وإعجاز القرآن بين ثناياها حديثاً عن الأصوات ومعالجة لها، ومناقشات ترتبط بتصميم الميدانين الفونيتيكي والفونولوجي، وخاصة حين تعرّضها للفصاحة وما يرتبط بتناقل وانتلاف الأصوات.

ومما يمكن الاستشهاد به، على سبيل التوضيح لا حصر جميع ما ورد في المصنفات العديدة، ما جاء في "سرّ الفصاحة" لابن سنان الخفاجي الذي يرى أنّه كلّما تباعدت مخارج حروف اللفظة حسن وقعها على السمع، وكلما تقاربت قبح، فذكر ذلك في وقوله: "إنّ الحروف وهي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شكّ في أنّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة" (27).

وفي هذا المجال يوازن الرماني بين قوله تعالى: "ولكم في القصص حياة" وقول العرب: "القتل أنفى للقتل" فيقول: "وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ بأن الخروج من الفاء إلى اللام (في القصص) أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعدها الهمزة من

اللام (القتل أنفى) وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء (القصاص) أعدل من الخروج من الألف إلى اللام (أنفى للقتل).

وقد تناول أيضا التأليف اللفظي، وقسمه إلى متنافر ومتلائم، وذكر أن السبب في التلاؤم مرده إلى تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما، وأما التنافر فسببه مثلما ذكر ذلك الخليل يعود إلى البعد أو القرب الشديد بين مخارج الأصوات، فإذا بعدت الأصوات كانت بمنزلة الطفر، وإذا قربت القرب الشديد كانت بمنزلة المشي المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال (28).

وقد ضمّ كتاب إعجاز القرآن للباقلاني كثيرا من المباحث الصوتية، بقصد تحليل آيات القرآن، وبيان أوجه إعجازه، فذكر ما يتعلق بفواتح السور، وسرّ اختيار حروف معينة لها، فمما قاله: "إنّ الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفا، ليدلّ بالمذكور على غيره، وليعرفوا أنّ هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم، والذي تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوها - أقسام، نحن ذكروها: فمن ذلك أنّهم قسموها إلى حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة وهي الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين.

وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة، وقد عرفنا أنّ نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان" (29).

يقول الباقلاني عن البدء بحروف (ألم): "لأنّ الألف المبدوء بها هي أقصاها مطالعا، واللام، والميم منطرفة لأنها تأخذ في الشفة، فنّبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنّه إنّما أتاهم بكلّ منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردّد بين هذين الطرفين ويشبه أن يكون التصنيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأنّ الألف قد تلغى، وقد تقع والهمزة وهي موقعا واحدا" (30).

إلى غير ذلك من النماذج ذات الصلة بالميدان الصوتي والتي يجدها الدارس في هذا المصدر القيم. وتجدر الإشارة أيضا إلى أنّ "مفتاح العلوم" للسكاكي الذي يعدّ مصدرا بلاغيا ولكنه لم يغفل الجانب الصوتي، إذا بدأ به كتابه، فتعرّض إلى مخارج الأصوات وصفاتها، ومما يثير الإعجاب أنّه رسم جهاز النطق ووضع ضمنه مخرج كل حرف، على الرغم من أنّه لم تكن لديه الأجهزة العلمية التي يستعين بها لرسمه.

و - الموسوعات الأدبية:

ناقشت المصنفات الأدبية والنقدية العربية القديمة كثيرا من القضايا الصوتية ولا سيما تلك التي ترتبط بالجانب النطقي أو الفيزيولوجي منها، ومن هذه الموسوعات "البيان والتبيين" للجاحظ.

فلقد تعرّض على تعريف الصوت حيث قال: "هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلّا بظهور الصوت" (31).

ويتناول موضوعا مهما ذا صلة بالأمراض الكلامية أو العيوب النطقية التي أصبحت علما مستقلا في العصر الحديث يطلق عليه "الأرطوفونيا"، وقد تعرّض إليه أثناء الحديث عن الفصاحة لما للأمراض من تأثير عليها.

فهو يردّ بعضها إلى السرعة كاللفف أي أن يدخل المتكلم الكلام بعضه في بعض، وبعضها الآخر إلى عيوب عضوية كسقوط الأسنان، (33)، فيحدث صفير في الكلام، وبالتالي ترفضه الأذن المعتادة على سلامة النطق وفصاحته.

"ومن خلال العيوب الصوتية كاللثغة وغيرها يتوصل إلى دراسة التقطيع الوظيفي، فالألثغ مثلا عندما يقطع كلمة "مضر" يقول: "مضي" بإخراج الراء من مخرج الياء، لنقصان في آلة النطق، وعجزه في أداء الصوت، مع أنّه يقصد "مضر"، لأنّ السامع الذي يسمع مضي يظن للعاهة، ويصحح الخطأ الصوتي، ويفهم كلامه بالاعتماد على التقطيع المألوف" (34).

وذكر أنّ الأصوات التي تدخلها اللثغة هي القاف والسين واللام والراء فتقلب القاف إلى طاء، والسين إلى ثاء، واللام إلى ياء أو كاف، والراء إلى غين أو ياء. وتحدث الجاحظ عن اللكنة التي تظهر في كلام الأعجمي الذي ينطق باللغة العربية كنطق السندي الجيم زايًا، والنبطي الزاي سينا والعين همزة. وأشار - أيضا - إلى البناء الصوتي للكلمة العربية، وإلى ما يأتلف في نسجها وما لا يأتلف، أي ما عرف بالتناظر والتلاؤم، حيث قال: "فأما في افتراق الحروف، فإنّ الجيم لا تقارن الطاء، ولا القاف، ولا الطاء... بتقديم، ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الطاء ولا السين والضاد ولا الذال...". (35).

ز- المصادر الصوتية:

على الرغم من وجود الدراسة الصوتية متناثرة في ثنايا مصادر مختلفة من التراث العربي، وكثرة العلماء والباحثين في هذا الميدان، إلا أنه لم يظهر مصدر مستقلّ يجمع شتات القضايا الصوتية وضّم متفرقاتها إلا في فترة متأخرة من مسيرة البحث الغوي العربي، وذلك على يد ابن جني في كتابه "سر صناعة الإعراب"، ولدى ابن سينا في رسالته الشهيرة الموسومة بـ "أسباب حدوث الحروف".

وقد يرجع سبب هذا التأخر إلى "طبيعة المنهج اللغوي قديما في معالجة جوانب الدرس اللغوي بين دفتي المصدر الواحد، إذ لم يكن هناك فصل دقيق بين فروع الدراسات الغوية" (36). ويعّد ابن جنيّ أول من نظر إلى المبحث الصوتي على أنه علم قائم بذاته، وأنه أول من استعمل مصطلحا لغويا للدلالة على هذا العلم والذي ما زلنا نوظفه بالمفهوم نفسه إلى اليوم، ألا وهو علم الصوت، وكان على حق حين قال: "وما علمت أنّ أحدا من أصحاب، ما خاض في هذا الفن، هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع" (37).

وما نستشفّه من هذا النص هو أنّ ابن جني لم يكن جامعا لآراء وأفكار الذين سبقوه، وإنما تميّز بالإضافة الجادة، تعبّر عن نظريته العلمية الصائبة ودقتها الفائقة، وتبيّن أنّها دراسة لغوية مهمة يجب عالم اللغة أن يضعها في الاعتبار" (38).

ومما يثير الإعجاب في دراسة ابن جني اهتمامه بالجانب العملي للتطبيقي كما نلاحظ ذلك اليوم في المختبرات الحديثة المتطورة والمعتمدة على الآلات والأجهزة الفنية.

فقد شبه الحلق بالناي (المزمار)، وشبه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأصابع، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكلّ خرق صوت لا يشبه صوت صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب سماعنا هذه الأصوات المختلفة" (39).

ويربط ابن جني علم الأصوات بعلم الموسيقى، فيقول: "إن علم الأصوات والحروف له تعلّق، ومشاركة للموسيقى، لما في صنعة الأصوات والنغم" (40).

وعلى العموم يمكن تلخيص محتويات الكتاب في العناصر الآتية:

1 - إعطاؤه المفهوم اللغوي للصوت والحرف، والفرق بينهما.
2- ذكره لعدد الحروف الهجائية العربية وترتيبها وذوقها، والحديث عن مخارجها وبيان صفات الحروف وتقسيمها أقساما مختلفة.

3 - التغير الذي يطرأ على بنية الكلمة فيؤدّي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.

4 - اتئالف الحروف بعضها مع بعض لتكون الكلمات، وأثرها في فصاحة اللفظ التي ترجع إلى تباعد مخارج الأصوات.

أمّا ابن سينا فقد ركز في رسالته "أسباب حدوث الحروف" على الجانب الفيزيائي والتشريحي أكثر من الجانب اللغوي، بسبب تخصصه الذي اشتهر به والثقافة التي نهل منها، فقد كان فيلسوفا حكيما وطبيبيا خبيراً.

فهو يعرف الصوت بقوله: "أظنّ أنّ سبب الصوت القريب تمّوج الهواء دفعة وبسّعة من أيّ سبب كان" (41).

ويحيل بهذا التعريف إلى البحث في ظاهرة فيزيائية هي الموجات الهوائية، والسبب القريب هو تمّوج الهواء والسبب البعيد هو علّة تمّوج الهواء المتمثّلة إمّا في القرع وإمّا في القلع. ويقول عن الحرف: "هو هيئة للصوت عارضة له، يميّز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميّزا في المسموع" (42).

وقد اشتملت الرسالة على ستّة فصول تضمّنت ما يلي:

- 1 – حديثه عن سبب حدوث الصوت والحرف.
- 2 – خصص هذا الفصل لمخارج الأصوات ومحابسها، ويقدم فيه صفات الأصوات منها الثقيل والحاد، خفوت الصوت وجهره، الصوت الأملس، والصلب المتخلخل.
- 3 – يعرض فيه لمكوّنات الحنجرة واللسان.
- 4 – يبين ابن سينا في هذا الفصل كيفية صدور كلّ صوت من أصوات العربية، ويصف العملية العضوية في إنتاجه، ويرتب الأصوات بحسب مخارجها على شاكلة الخليل.
- 5 – تحدّث فيه عن أصوات سمعها في لغات أخرى غير عربية مثل السين الزائية والزاي السينية والزاي الظائية والفاء الشبيهة بالباء.
- 6 – أمّا الفصل الأخير، فقد جعله لكيفية إنتاج أصوات بحركات غير نطقية كالشين التي تسمع عن نشيش الرطوبات والطاء التي تحدث عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان. والرسالة درّة ثمينة استطاع أن يولج بها ابن سينا علم الطبيعة إلى علم اللغة، فكشف عن أسرار غامضة لا زالت من صميم الدراسة المعاصرة كظاهرة التّموج الفيزيائية وكثافة الهواء في كلّ موجة وشكل الموجة وما يترتب عنه من صوت . وهكذا يكون قد انفرد بحقائق له فيها فضل سبق والاكتشاف بعد الخليل وسيبويه وابن جني على عكس أولئك الذي أعادوا صياغة ما قاله أمثال هؤلاء العلماء، وفي ذلك يقول إبراهيم أنيس: "ولمّا وقفنا على هذه الرسالة منذ بضع سنوات استرعى انتباهنا أنّها تعالج طرفا من الدراسة الصوتية اللغوية علاجا فريدا يختلف اختلافا بيّنا عن علاج سيبويه وأمثاله من علماء العربية" (43).

خاتمة:

ومما سبق يتّضح لنا كيف نشأت الدراسة الصوتية العربية وتطوّرت ووكيف تجلّت في كثير من المصادر العلمية والمؤلفات، فتناثرت فيها بحيث لم يضمها مصدر واحد بعينه وإنّما اختص فيها غير عالم وألف فيها أكثر من دارس.

وما تزال الدراسة الصوتية تعرف التطوّر والازدهار في العالم العربي بفضل التقنيات الحديثة ونمو العلوم والمعارف، فقد أصبحت معاهد مختصة في الدراسة الصوتية، وبات نتائجها تفيد تحلي الخطابات المختلفة الأدبية منها والمسرحية في مجال الأداء، وكلّك رجال الإعلام والتلفزيون، ومن هنا نقول إنّ الدراسة الصوتية لها جدواها في علوم جمّة واختصاصات متعدّدة.

الهوامش:

- 1 - د.كريم زكي حسام الدين، اصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: 2، سنة: 1985، ص: 125.
- 2 - عن د.عبد المنعم عبد الله محمد، بر جستراسر، التطور اللغوي، ص: 11، عن المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، مطبعة الجبلأوي، القاهرة، سنة 1988، ص: 17.
- 3 - د.عبد الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربي، ص: 129..
- 4 - د.عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، ص: 17.
- 5 - ينظر ابن الجزري، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، دار الكتاب العربي، (جزءان).
- 6 - ينظر إدريس السرغوشي، مدخل للصواتة التوليدية، ص: 1.
- 7 - د.محمود السعران، علم اللغة، ص: 91.
- 8 - ينظر ، د.عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، ص: 17.
- 9 - المرجع نفسه، ص: 17.
- 10 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق د، مهدي المخزومي ود، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط: 2، إيران 1409، ج: 1، ص: 10.
- 11 - المصدر نفسه، ج: 1، ص: 47 - 48.
- 12 - د.عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص: 9.
- 13 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج: 1، ص: 57.
- 14 - المصدر نفسه، ج: 1، ص: 49.
- 15 - المصدر نفسه، ج: 1، ص: 52.
- 16 - ينظر د.أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط: 4، سنة 1982، ص: 93.
- 17 - ينظر د.إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص: 104-105.
- 18 - سيبويه، الكتاب، ج: 4، ص: 431.
- 19 - المصدر نفسه، ج: 4، ص: 433.
- 20 - ينظر المصدر نفسه، ج: 4، ص: 435 - 436.
- 21 - المصدر نفسه، ج: 4، ص: 436.
- 22 - أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، مكتبة دار العروبة - القاهرة 1959، ص: 93 - 94.
- 23 - ينظر د.محمود السعران، علم اللغة، ص: 101.
- 24 - د.عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، ص: 21.
- 25 - ينظر د.أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص: 93.
- 26 - ينظر ابن الجزري، الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، دار الكتاب العربي، جزءان.
- 27 - ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تحقيق علي فوده، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 2، 1994، ص: 60 - 61.
- 28 - عن الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، عن د.عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص: 13.
- 29 - الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص: 44.
- 30 - المصدر نفسه، ص: 46.
- 31 - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ط: 3، ج: 1، ص: 79.

- 32 – المصدر نفسه، ج:1، ص:69
- 34 – محمد الصغير بنّاني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من "خلال البيان والتبيين"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص:112
- 35 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص:79
- 36 – د. عبد المنعم عبد الله محمد، المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي، ص:18
- 37 – ابن جني عثمان، أبو الفتح، سر صناعة الإعراب، تحقيق الدكتور حسن هنداي، القاهرة، مصر، ج:1، ص:63
- 38 – د. عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص:10
- 39 – ينظر ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج:1، ص:9
- 40 – المصدر نفسه، ج:1، ص:9
- 41 – ابن سينا، علي الحسيني أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، 1398 هـ/1978 م، مكتبة الكليات الأزهرية، ص:8
- 42 – ابن سينا، المصدر نفسه، ص:10
- 43 – د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص:137.